

موقف علماء السنة الجزائريين من التصوف في القرن الحادي عشر هجري عبد الكريم الفكون نموذجا

أ/ ياسين بريك.

كلية أصل الدين

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الملخص بالعربية :

يتحدث هذا المقال عن التصوف الإسلامي في القرن الحادي عشر الهجري في الجزائر، حيث تناولت عن الوضع الحضاري العام للجزائر في تلك الفترة؛ لبيان أحوال العصر الذي ظهر فيه العلامة عبد الكريم الفكون ثم انتقلت إلى التعريف بشيخ علماء الجزائر في زمانه، حيث ذكرت مسيرته العلمية و أهم العلماء الذين تتلمذ عليهم و أهم المؤلفات التي تركها لنا و أبرز تلاميذه، و أقوال العلماء في شخصيته العلمية، و في أخير تطرقت لموقفه من التصوف و المتصوفة على العموم و منهجه في نقد عقائدهم و تصرفاتهم.

Summary

This article is talking about Islamic mysticism century atheist ten Islamic in Algeria, where dealt with the situation civilized General of Algeria in that period; to indicate the conditions of the times, which showed the mark Abdul Karim Alvkon then moved to the definition of a sheikh scholars of Algeria in his time, where according to his scientific and the most important scientists who schooled them and the most important literature that is left for us, and the most prominent disciples, and scholarly in his scientific, and in the last resort touched his position of Sufism and Sufis in general and his approach in the criticism of their beliefs and actions.

المقدمة:

شملت حركة التصوف كامل المغرب العربي كما هو الحال في المشرق، وكان طابعها في البداية الزهد و الورع ثم تطورت إلى تصوف فلسفي لعدة أسباب، و كثيرا ما كان التصوف يبدأ فرديا بمعنى الاعتكاف على العبادة و ترك الدنيا بما فيها، والانقطاع إلى الله، ثم يصبح جماعيا خاصة منذ نشأة الطرق الصوفية،. و نتيجة لتأثره بمختلف العوامل انقلب إلى دروشة ثم ازداد في الانحطاط، مما جعل العلماء ينتقدون تصرفات المتصوفة و يبينون للناس مواطن الفساد في هذه الحركة الدينية، و قد شهدت الجزائر في القرن الثامن هجري كباقي دول المغرب العربي و مشرقه ظهور عدة طرق صوفية تبنت مناهج مخالفة للشريعة الإسلامية في أحكامها و روحها، و هذا ما دفع علماء المنطقة إلى نقد هذه السلوكيات المنافية للشرع الحنيف، و العالم عبد الكريم الفكون أحد هؤلاء العلماء الأفاضل الذين خلصوا الدين في عصرهم من تحريف الغالين وانتحال المبطلين و تأويل الجاهلين، و هذا المقال يتحدث عن موقف هذا العالم الجليل من حركة التصوف في زمانه و انتقاداته على قادتها.

الوضع الحضاري العام للجزائر في القرن الحادي عشر هجري.

لا أحد يجادل في كون الوضع التاريخي العام في أي بلد يشكل القاعدة التي تنطلق منها أي حركة علمية وثقافية، و رجال تلك الحركة هم نتاج الوضع السياسي و الاجتماعي و الثقافي السائد خلال تلك الفترة و عبد الكريم الفكون هو نتاج عصره و بيئته، ولا يمكن فهم مواقف هذا العالم حتى نطلع على الوضع السياسي و الاجتماعي للجزائر خلال القرن الحادي عشر هجري.

أ_ **الوضع السياسي:** عاشت الجزائر (المغرب الأوسط) بعد انهيار الدولة الموحدية وضعا سياسيا مضطربا، فبعد انهيار دولة الموحدين أسس الحفصيون دولة لهم امتد سلطانها من طرابلس الغرب شرقا إلى بجاية غربا، كما أسس الزيانيون (1230-1554م) دولتهم وجعلوا من تلمسان عاصمة لسلطانهم، وامتد نفوذهم إلى حدود الدولة الحفصية شرقا، وهي حدود لم تعرف الاستقرار والثبات. كما أسس المرينيون لهم دولة في فاس، ومع بروز هذه الدويلات الثلاث، اشتد التنافس ونشبت حروب بينها باستمرار، وبذلك كان المغرب الأوسط(الجزائر)واقعا تحت سلطان بني عبد الواد في الغرب والحفصيين في الشرق، ومما زاد في عدم الاستقرار السياسي ظهور خطر جديد تمثل في الإسبان بالخصوص الذين هددوا مختلف السواحل الجزائرية ، بل واحتلوا بعضا منها، مستغلين الفرقة داخل البيوت الحاكمة، حيث إنه مع مطلع القرن السادس عشر تعرضت أغلب المدن الساحلية الجزائرية للاحتلال من قبل الإسبان، وقد كانت تلك المدن تحكمها أسر دون أن تدين بالولاء الكامل للحفصيين أو للزيانيين ، وفي هذه الأثناء ظهر العثمانيون قوة كبرى في البحر المتوسط، وهو ما شجع كثيرا من أمراء الأقاليم آنذاك على طلب

مساعدة العثمانيين في محاربة الإسبان من جهة ومد يد العون للمسلمين الفارين من إسبانيا من جهة أخرى. وهو الوضع الذي استغله العثمانيون في مد نفوذهم في غرب البحر المتوسط، وقاموا بالقضاء على نفوذ بقايا الأمراء الذين كانوا قد استقلوا عن الزيانيين والحفصيين بمن فيهم أمير الجزائر (جزائر بني مزغنة) سالم التومي شيخ الثعالبة، وكانت نتيجة ذلك أن بسطوا سلطانهم على الجزائر بعد أن قضوا بصورة كاملة على الدولة الزيانية عام 1554م بعد عزل آخر أمرائها الذي عرف عنه ميله للإسبان، كما دحروا الحفصيين شرقا، وقلصوا نفوذهم، وبذلك صارت الجزائر تحت سلطان العثمانيين، وقد عزز العثمانيون تموقعهم بعقد معاهدات مع السعديين في المغرب، حيث إنهم أرسلوا محمد الخروبي سنة 1552م إلى فاس من أجل معالجة مشكل الحدود وبالتالي التفرغ لقتال الغزاة الإسبان.

وقد عمل العثمانيون على تنظيم شؤون البلاد، وأحدثوا تنظيمات إدارية وقسموها إلى دار السلطان وعاصمتها الجزائر، بايلك الغرب وكانت عاصمتها في البداية مازونة ثم تحولت إلى معسكر، ثم إلى وهران بعد أن تم تحريرها من الأسبان، بايلك التيطري وعاصمتها المدية و بايلك الشرق وعاصمتها قسنطينة¹ حيث عاش المفكر و العالم عبد الكريم الفكون، كما أنشأوا مؤسسات عسكرية ودينية. غير أن العثمانيين بعد أن ألحقوا الجزائر بالسلطنة العثمانية لم يعاملوها على أنها دار إسلام، بل عاملوها كما تعامل البلاد المفتوحة حتى يبقوا على الضرائب.

وبالنسبة لنظام الحكم الذي ساروا عليه، فقد كان الحاكم يتسمى باسم البايبراي أو أمير الأمراء، وهذا بداية من 1518م إلى سنة 1587م، حيث إنه بداية من هذا التاريخ أصبح الحكم تحت سيطرة الباشاوات².

ففي سنة 1587 تم إلغاء نظام البايبرايات، واستبدل بنظام الباشاوات وهذا التغيير عين من قبل السلطان العثماني "مراد الثاني"، حيث أصدر فرمان إلغاء نظام البايبرايات واستبداله بهذا النظام، فآخذ الباب العالي بإرسال الباشاوات لحكم مدينة الجزائر ابتداء من 1587م، وكان هؤلاء الحكام يديرون شؤون الدولة بمعاونة اللجنة الاستشارية مؤلفة من: وكيل الخرج، الخزانجي، خوج الخيل والأغا، وفي هذه المرحلة كان الباشاوات يعينون لثلاث سنوات.

¹ - و يرجع أساس تقسيم هذه الولايات إلى حسن باشا ابن خير الدين (950هـ-959هـ)، (1552م-1554م). أنظر: محمد بن ميمون الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم و تحقيق محمد بن عبد الكريم، ط 1، الشركة الوطنية للطباعة، 1972، 35.

² ابن الوزان الزياني، وصف أفريقيا، ص 394

و أول باشا عين طبقا لهذا التنظيم الجديد هو "دالي احمد باشا" (1587-1589م) وتداول على هذا المنصب أربعة وثلاثون حاكم منهم من شغل المنصب لمرتين³.

ثم انتقل النظام من الباشاوات إلى الآغاوات⁴، وكان هذا عام 1659م، وكان الآغاوات ينتخبون من الفرق الانكشارية لمدة شهرين قمرين لهذا كانوا يعرفون بـ "أغا المقرين" ولكي لا يستأثر بالآغا بالسلطة فقد تقرر أن يستعين الحاكم بالديوان العالي . وقد تميز هذا العصر بمحاولة انفصال الجزائر عن الدولة العثمانية، أضف إلى ذلك النظام لم يدم طويلا، فالآغا يتولى الحكم كما اشرنا سابقا لمدة شهرين ثم يعزل، لذا تشبث الآغا بهذا المنصب ورفضوا التنازل عنه مما أدى إلى عزلهم بطريقة غير طبيعية كالقتل⁵.

و بما أن الجزائر كانت دوما تحاول تأكيد ذاتها ووضعها الخاص ؛ فقد حاولت أن تكون مستقلة عن اسطنبول⁶. و كان عام 1671م بداية المرحلة الأخيرة من فترة الحكم العثماني في الجزائر ، هذه الفترة التي اعتمدت على النظام العسكري⁷، و يعتبر هذا الدور أطول أدوار العهد العثماني حيث استمر خلال قرن و نصف ؛ و كان من الأسباب التي دعت لتغيير نظام الآغاوات هي حالة الفوضى و الاضطرابات و القتل المتتابع للحكام فتباعد الناس عن مناصب الحكم - الرئاسة - خوفا من الخطأ المحقق بهم⁸.

الوضع العلمي الثقافي: شهدت الجزائر خلال هذه الفترة نشاطا علميا كبيرا، وهذا يرجع بالدرجة الأولى إلى عناية الأمراء ببناء المساجد والمدارس، و إنفاق المال على طلبة العلم و العلماء، كما كانت عناية الأمراء بالمكتبات كبيرة ، حيث إن الزبانيين بنوا كثيرا من المدارس والمكتبات العامة التابعة لها، ومن أشهر هذه المدارس: المدرسة التاشفينية ، المدرسة اليعقوبية ، ومدرسة أبي مدين شعيب وغيرها من المدارس. وشجعوا النساخين على نسخ الكتب حتى تكون بين أيدي الدارسين ، كما اهتموا ببناء الزوايا، ذلك أن أغلب ملوك بني زيان كانوا من الشعراء والأدباء، وقد ساعد على ذلك وجود الأوقاف التي مكنت الطلاب من التفرغ لطلب العلم، وقد عرفت مدينة

³ - مثل "حسين الشيخ" (1613م-1616م)، وكان آخرهم الباشا "إبراهيم" (1656م-1659م).

⁴ - كان أول من تولى هذا المنصب هو "خليل آغا" (1659-1660م) وجاء بعده ثلاثة آغاوات كان آخرهم "علي آغا" 1665-1671م.

⁵ - أحمد السليماني: النظام السياسي الجزائري في العهد العثماني، د ط، مطبعة دحلب، الجزائر، د ت، ص 12-16.

⁶ - ابو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص 146.

⁷ - ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي في الجزائر أواخر العهد العثماني، ط 2 ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، 1985، ص

31.

⁸ - المرجع نفسه: ص 31.

تلمسان ظهور عدد كبير من العلماء في شتى العلوم والفنون، منهم على سبيل المثال: محمد بن يوسف السنوسي، وتلميذه محمد الملاي التلمساني وغيرهما. غير أن هذا الوضع الثقافي الذي كان مزدهرا عرف بعض التراجع في آخر العهد الزياني بسبب كثرة الفتن، وكثرة الاضطرابات السياسية التي انعكست سلبا على سائر نواحي الحياة وأهمها الناحية العلمية والثقافية، فما إن حل القرن العاشر الهجري، حتى ضعفت الناحية العلمية والثقافية، وهو وضع أدركه العثمانيون.

وبعد أن استولى العثمانيون على تلمسان وأزاحوا آخر أمراء بني عبد الواد حدثت فتن بين العرب والترك تسببت في هجرة كثير من العلماء من تلمسان إلى مناطق أخرى أكثر أمنا، خاصة إلى فاس في المغرب الأقصى، وهو ما كان سببا مباشرا في ركود الحياة الثقافية لفترة من الزمن ليست يسيرة، وازداد الأمر سوءا بعد أن تحول اهتمام العثمانيين إلى الزوايا ومشايخها حتى يتمكنوا من التغلغل عن طريقهم في أوساط العامة بغرض كسب تأييدهم.

كما أن العثمانيين قاموا بإدخال المذهب الحنفي إلى الجزائر و جاؤوا معهم بطرق صوفية لم تكن معروفة أو على الأقل لم تكن منتشرة بين السكان . ومن جهة أخرى أثروا في العمارة كالمساجد والأضرحة، وفي الموسيقى و الخط، و المنشآت العسكرية و البحرية، وفي اللغة والملابس ونحو ذلك. وقد أنشئوا هم أيضا الأحباس التي تخدم جميع الأغراض الاجتماعية و العلمية .ومن أهمها وأشهرها أوقاف (سبل الخيرات)⁹.

و قد كانت تلك الفترة تعج بالعلماء إلى جانب العلامة عبد الكريم الفكرون منهم:

- ابن مريم (ت 1025هـ)
- عمر الوزان (ت 1139هـ)
- أحمد المقرري (ت 1041هـ)
- سعيد قدورة (ت 1066هـ)
- محمد بن عبد المومن (ت 1094هـ)
- يحيى الشاوي (ت 1096هـ)

⁹ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق ، ص 150

ترجمة العلامة عبد الكريم الفكون:

مولده و نسبه :

يقول الحفناوي في تعريفه : "هو الشيخ الفقيه المشارك العلامة الفهامة سيدي محمد بن العلامة الناسك الخاشع الجامع بين علمي الظاهر و الباطن ، سيدي عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفكون..."¹⁰ عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن قاسم بن يحيى الفكون ، ولد بقسنطينة سنة 988 هـ / 1580 م ، و هي السنة نفسها التي توفي فيها جده عبد الكريم بن قاسم الفكون فسمي باسمه¹¹ ، و ينتمي مترجمنا عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن قاسم بن يحيى الفكون لأحد أعرق وأشهر البيوتات العلمية في مدينة قسنطينة: بيت آل الفكون ، و التي توارث أفرادها منذ عهد بعيد المجد و الرئاسة ، و العلم و الصلاح ، يرجع أصلها إلى قبيلة تميم العربية ، إذ نجد أن أفرادها يتبعون ألقابهم بهذه النسبة (بني تميم) ، و لكن العلامة عبد القادر الراشدي (ت سنة 1194 هـ / 1780 م) الذي كان يشغل منصب مفتي الحنفية والقضاء بقسنطينة في القرن الثاني عشر هجري / أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ينكر هذه النسبة¹² و يذكر في آخر صفحة من كتابه " عقد اللآلئ المستضيئة لنفي ظلام التلبيس " أن نسب الأسرة ينتهي إلى " فكونة" يقول الراشدي " : وأولاد نعمون من توابع الحفاصة من هنتاتة و أولاد المسيح من بني مرداس بن عوف السلمي و أولاد الخيتمي من ختيممة قرية بأوراس و أولاد الفقون من فكونة قرية بأوراس أيضا ، و لم يتحر نسبهم كمن قبلهم."

لكن مع ذلك مع ذلك لم يوجد أي نفي صريح من طرف العائلات الشريفة نفسها نسب الفكونيين الشريف كعائلة البوني- المنسوبة إلى تميم أيضا- و التي كان عالمها أحمد البوني صاحب تأليف " الدررة المصونة" على علاقة مع عالم الأسرة الفكونية عبد الكريم الحفيد، و كانت بينهما رسائل لم يوجد في ثناياها أي إشارة عن نفي هذا النسب.¹³

و مهما قيل في أصل هذه العائلة و نسبها فمن المؤكد أنها من الأسر العريقة بقسنطينة ، إذ تعود في أصولها إلى القرن السادس الهجري فمن أجداده المتقدمين الفقيه الأديب أبي علي الحسن بن علي بن عمر الفكون القسنطيني

¹⁰ - أبو القاسم محمد الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف ج1، ط2، مؤسسة الرسالة، المكتبة العتيقة، 1405هـ-

1985م، ص 166.

¹¹ - أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م، ص 519.

¹² - أبو القاسم سعد الله: شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1406هـ-

1986م ، ص 38.

¹³ - أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ص 38.

602هـ-1205م¹⁴، صاحب الرحلة المنظومة التي قام بها من بلدته قسنطينة إلى مراكش أواخر القرن السادس الهجري و مطلعها:

ألا قل للسرى ابن السرى ... إلى البدر الجواد الأريحي

و قد ترجم له الغبريني في " عنوان الدراية " و حلاه بقوله : " و هو من الفضلاء ، و كان رفيع القدر ، و من له الحظوة و الاعتبار ، و كان الأدب له من بابا الزينة و الكمال و أصله من قسنطينة من ذوي بيوتاتها و من كريم أروماتها "

و اشتهرت عائلة الفكون بكثرة الأموال و الأملاك الواسعة التي كانت تنفقه في وجوه البر و الإحسان ، كما أصبحت تتمتع بنفوذ روحي كبير خاصة بعد تكليفها برئاسة ركب الحج الجزائري إلى الحجاز مع ما يكسبه هذا المنصب من احترام و مكانة في الجزائر و الحجاز و البلدان الإسلامية التي يمر بها، كما كانت لهم في قسنطينة زاوية تحمل اسمهم لاستقبال الضيوف من الفقراء و الغرباء، و إيواء العلماء و الطلاب العالم المصلح المفتي النحوي المدرس كما قلنا سابقا ، و لهم أيضا مدرسة مفتوحة لطلبة العلم من كل قطر الجزائري ، و حتى من الدول الإسلامية المجاورة¹⁵ ، و ممن اشتهر من هذه العائلة و ذاع صيته في الآفاق ، عبد الكريم الفكون الجد (ت 988 هـ) و الذي كان أول من تولى وظيفة الإمامة و الخطابة من عائلة الفكون بالجامع الكبير بقسنطينة خلال العهد العثماني بعد سنة 975 هـ ، و قد ترجم له حفيده عبد الكريم الفكون في " منشور الهداية " فقال عنه : " كان منشغلا بما يعنيه دينا و دنيا معتكفا على الإقراء و التدريس ، و كان إماما بالجامع الأعظم و خطيبه ، و ممن يرجع إلى قوله في النوازل و الأحكام و كانت الولاية اغلب عليه ، مواظبا على الأذكار و قيام الليل إلى أن مات .
16

و منهم والده الذي تولى جميع وظائف أبيه من إمامة و خطابة بالجامع الكبير بقسنطينة و قد توفي أثناء رجوعه من الحج في مكان بين الحجاز و مصر سنة 1045 هـ " و كان فقيها صوفيا ، و ربما يرجع إليه في المسائل و الإفتاء ، و كان ذا سمت و تعفف و أوراد و قيام الليل¹⁷

و قد استطاعت عائلة الفكون خلال العهد العثماني أن تتحصل على امتيازات كثيرة وان تحتل مكانة اجتماعية مرموقة بسبب سمعتها الدينية و العلمية، و ثروتها الطائلة¹⁸، وقد نوه به وبأسرته . نظماً ونثراً . معاصره العلامة

¹⁴ - و قد ترجم له الغبريني في " عنوان الدراية " و حلاه بقوله : " و هو من الفضلاء ، و كان رفيع القدر ، و من له الحظوة و

الاعتبار ، و كان الأدب له من بابا الزينة و الكمال و أصله من قسنطينة من ذوي بيوتاتها و من كريم أروماتها "

¹⁵ - أبو القاسم سعد الله : شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، مرجع سابق، ص 39-45.

¹⁶ - عبد الكريم الفكون : منشور الهداية، تحقيق : أبو القاسم سعد الله، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1408هـ -

1987م، ص 48.

¹⁷ - المرجع نفسه، ص 52

¹⁸ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، مرجع سابق، ص 520-521.

الأديب أحمد المقرئ التلمساني نزيل فاس ثم القاهرة (ت 1041 هـ). يقول: "فهو العالم الذي ورث المجد لا عن كلاله، وتحقق الكل أن بيته شهير الجلالة، بيت بني الفُكُون، هضاب العلم والوقار والسكون، لا زال الخلف منهم يحيون مآثر السلف.

ودام عبد الكريم فردا... في العلم والزهد والولاية
فهو الذي حاز فضل سبق... وصار في الزمان آية "

شيوخه:

نشأ الفكون في كنف والده الذي هو كان أول شيوخه فحفظ على يديه القرآن الكريم و تلقى المبادئ الأولية للعلوم في زاوية العائلة¹⁹ ، ثم عكف على تحصيل مختلف العلوم الشرعية و اللغوية ، ثم تولاه كبار شيوخ عصره من أمثال :

- سليمان القشي²⁰ : قرأ عليه أوائل الرسالة و حضر باقيها، و شرح الصغرى في العقائد ، و القطر و الأجرومية بشرحها لجبريل، و بعض أوائل الألفية، و كان الشيخ القشي من الذين درسوا في الأزهر الشريف مدة من الزمن.
- عبد العزيز النفاقي: الذي قرأ عليه الحساب و بعض الفرائض.

- أبو عبد الله محمد الفاسي المغربي الذي قرأ عليه الاضطراب و بعض الفرائض و لكن الفكون وجد عنده قصورا في العلم فقال عنه: " ليس له معرفة في معاني الألفاظ و لا بالصناعة الكسورية فأطبقت الكتاب لما تحققت من عجزه، و طالعتة وحدي ففتح الله في عمل الفريضة بالطريقة الكسرية...".

- محمد التواتي المغربي²¹ : أشاد به الفكون كثيرا و وصفه بأنه " سيبويه زمانه". و كان التواتي معجبا بتلميذه الفكون مسرورا بمباحثه معه

¹⁹ - أبو القاسم سعد الله: شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، مرجع سابق، ص 58.

²⁰ - الذي قال عنه في " منشور الهداية " ص 60 " : ومن أشياخنا في البداية الشيخ البركة أبو الربيع سليمان بن أحمد القشي نسباً ، أصله من بلدة نقاوس (تابعة لولاية باتنة و هي مشهورة بفاكهة المشمش ، و منها العصير الذي يباع بكثرة في الجزائر) وانتقل إلى قسنطينة مراهقا بعد موت والده سنة ثلاث وستين ... ورحل إلى مصر يقصد الحجاز فعاقه عائق تخلف في الجامع الأزهر فقرأ على شيخ عصره العلامة البحر الفهامة أبي النجاة سالم السنهوري المختصر و الرسالة و الألفية و ألفية العراقي ، و أقام بها مدة ثم رجع إلى قسنطينة... و قد انتفع به خلق كثير لقرب عبارته و وسع صدره ، فلا تجد المبتدئ يقرأ إلا إليه لبساطة كلامه و حسن نيته و كثرة توفيره ، و حلوا الفكاهة و المحادثة ، منبسطة يداعب الصغار و الكبار ، ملازما للذكر كثير التلاوة، قرأت عليه أوائل الرسالة وحضرت باقيها ، وقرأت شرح الصغرى و القطر (قطر الندى و بل الصدى لابن هشام النحوي) و الجرومية بشرحها جبريل و بعض أوائل الألفية.

²¹ - الذي ترجم له في " منشور الهداية" ص 55 فقال عنه "... :ومن لقيناه و قرأنا عليه الشيخ الأستاذ النحرير النحوي ، آخر المتكلمين لسان حجة المسلمين ، أبو عبد الله محمد بن مزيان التواتي ،،، قرأت عليه المرادي - يقصد شرح ألفية ابن مالك

و محمد بن راشد الزواوي، وقد كان لهذين العالمين الأخيرين تأثير كبير في اتجاهه نحو دراسة النحو و التضلع فيه. لقد كان الفكون محبا للمطالعة و تثقيف نفسه، فكان كثيرا ما يعتكف على القراءة وحده من مكتبة العائلة الزاخرة بأمهات الكتب و المخطوطات التي جمعها شيوخ العائلة خلال عقود من الزمن.²²

الوظائف و المهام التي تولاهما:

تولى التدريس بالجامع الكبير بقسنطينة في حياة والده الذي كان ينيبه عنه أثناء غيابه رغم صغر سنه نسبيا ، و قد ظهرت عليه مخايل النبوغ و الذكاء في سن مبكرة فكان بارعا في " فنون العربية لغة و نحو و تصريفا و بلاغة مع المشاركة التامة في الفقه و الأصولين الحديث و التصوف و غير ذلك "، كما دَرَسَ في زاوية العائلة و في مصلى بيته ، و في المدرسة التابعة لعائلة الفكون فكان يستقبل الطلبة من قسنطينة و من غيرها من نواحي القطر خصوصا من منطقة زاوية و من منطقة الجزائر و ما حولها ، و من منطقة الزيبان و عنابة ، وكان يُدَرِّسُ التفسير و صحيح البخاري و الفقه من ابن حاجب و الرسالة و النحو.²³

و بعد وفاة أبيه عام 1045 هـ خلفه في إمامة المصلين و الخطبة أيام الجمع و الأعياد ، و السهر على أوقاف الجامع الكبير ، كما تقلد إمارة ركب الحج و حصل على لقب شيخ الإسلام بعد أن بلغ نفوذه العلمي و الروحي ذروته، و قد بقيت إمارة الحج²⁴ في أيدي عائلة الفكون لقرون عديدة.

وكل من بلغ مبلغ الفكون من الجاه و العلم و الوظيفة يقصده الناس بالمراسلات و العلاقات مثل مراسلاته مع سعيد قدورة مفتي الجزائر في وقته ، و مع بلغيث القشاش و تاج العارفين العثماني ، و إبراهيم الغرياني و المقرئ صاحب " نفع الطيب "، و العالم المصري الشيخ عبد الرحمن الأجهوري ، و السوسني المغربي من المغرب الشقيق و غيرهم²⁵

للمرادي- ، الحسن بن قاسم ، و عقائد السنوسي -الكبرى و الوسطى و الصغرى بشراحها -، وابن الحاجب بمطالعة التوضيح عليه ، و التذكرة للقرطبي ، و حضرته كذا - للتفسير نحو العشرة أحزاب- ، و كتاب مسلم بن الحجاج بقراءة الأبي - يقصد الشرح المسمى ب: " إكمال الإكمال في شرح صحيح مسلم " بشرح الأبي ، أبو عبد الله محمد بن خلفه بن عمر الوشتاتي المتوفي سنة 828هـ - و كان رحمه الله يسر بمباحثتي معه ، و لي معه كلام في إعراب السيوطي (عدد خلقه) و (رضي نفسه) و (زنة عرشه)

²² - أبو القاسم سعد الله : شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، مرجع سابق، ص 65.

²³ - المرجع نفسه، ص 69-70

²⁴ - يقول المؤرخ البحاثة الجزائري المهدي البوعبدلي عن إمارة الحج:

... "كانت خطة إمارة ركب الحج لا تسند إلا لأمثل عالم، تراعى فيه عدة مقاييس، أهمها التبحر في العلم والاستقامة، إذ هو الممثل لبلاد و لنبخبة علمائها، حيث يجتمع بكل علماء الأقطار الإسلامية، ويتبادل معهم الإجازات و التأليف، و يشارك في المناظرات العلمية التي كانت تعقد لحل المشاكل العويصة. فكانت مهمة أمير الركب في رحلاته الإفادة والاستفادة"

²⁵ - أبو القاسم سعد الله: شيخ الإسلام، مرجع سابق، ص 101-107

تلاميذه:

تخرج على يدي الفكون مجموعة كبيرة من الطلاب النجباء الذين ذاع صيتهم، و من أشهرهم : أبو مهدي عيسى الثعالبي و قد ترجم له و سجل ما قرأه على يديه من كتب و ما أجاز به في ثبته المسمى ب " كنز الرواة " ، و أبو سالم العياشي المغربي ، و يحيى الشاوي ، و بركات بن باديس و احمد بن سيدي عمار ، و غيرهم.

أقوال العلماء المعاصرين له:

كان الفكون من أعلام عصره في الحديث و الفقه و النحو بارعا فيه ، أدبيا شاعرا ، جمع بين علم الظاهر و الباطن ، و قد تحدث عنه علماء عصره و تلامذته و نوهوا بمكانته المتميزة في العلم ، فقال عنه المقرئ " : عالم قسنطينة و صالحها و كبيرها و مفتيها سلالة العلماء الأكابر و وارث المجد كابرا عن كابر، المؤلف سيدي الشيخ عبد الكريم الفكون حفظه الله... عالم المغرب الأوسط غير مدافع ، و له سلف علماء ذوو شهرة، و لهم في الأدب الباع المديد²⁶ "

و أثنى عليه تلميذه أبو مهدي عيسى الثعالبي في "كنز الرواة" بقوله " : علامة الزمان و رئيس علوم اللسان و فخر المنابر إذا خطب ، و لسان المحابر إذا شعر أو كتب " ²⁷ ، أما أبو سالم العياشي فقد قال عنه : " العلامة الفهامة الناسك الجامع بين علمي الظاهر و الباطن سيدي عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفكون القسنطيني"²⁸

وفاته:

يقال - و الله اعلم - أنه لما تقدمت به السن انقبض عن الناس و ترك الاشتغال بالعلوم، توفي بالطاعون عشية الخميس 27 ذي الحجة 1073 هـ الموافق ل 3 أوت 1663 م عن عمر يناهز خمس و ثمانين سنة.

آثاره و مؤلفاته:

- "منشور الهداية في كشف من ادعى العلم والولاية".

- "سربال الردة في من جعل السبعين لرواة الإقراء عدة": ذكر. أبو القاسم سعد الله في كتابه " تاريخ الجزائر الثقافي": " أن الكتاب مخطوط بباريس ، وهو تأليف في القراءات ، غني بالآراء و النقول، عاجل فيه أنواع القراءات ورواتها و غير ذلك مما يتصل بهذا الموضوع"²⁹.

²⁶ - عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج3، ط1، دار الأمة للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، 2007، ص152.

²⁷ - المرجع نفسه، ص 152.

²⁸ - المرجع نفسه، ص 152.

²⁹ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م، ص 25.

وقال عنه المهدي البوعبدلي "...": و قد نص على أن هذا التأليف لا يتجاوز كراسة و أنه قد وضعه بعد واقعة وقعت له مع أحد علماء قسنطينة عندئذ و هو أحمد بن حسن الغري و يبدو من العنوان و من ظرف التأليف أن هذه الكراسة عبارة عن مناقشة لما

- "فتح الهادي في شرح جمل المجرادي.

- "الدرر في شرح المختصر". والمقصود به "مختصر" عبد الرحمن الأخصري. وعن أهميته وما فيه من مضامين وفرائد، يقول مؤلفه "...: نبهنا على فوائد فيه لم توجد في المطولات، ونكت حسان قل أن تلقى في غيره، وتنبهات أخذناها من فحوى خطابه، وفروع كملنا بها ما لم يفصح به كلامه رضي الله عنه وأرضاه. وربما نبهنا على ما طغى به قلم شارحه"³⁰.

- "شرح البسط والتعريف في علم التصريف"³¹: ألفه سنة 1048 هـ. ، و التزم فيه أنه عقب كل شاهد ذكر حديث مناسب للشاهد معنى و إعرابا.

- "فتح المولى في شرح شواهد الشريف بن يعلى". و هو الكتاب الذي رصد فيه منتخبات الشواهد الشعرية التي وظفها الشريف أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يعلى الحسني.³²

- "شرح لامية الجمل النحوية".

- "محدد السنان في نحو إخوان الدخان".

- فتح المالك في شرح ألفية ابن مالك".

- "شفاء الأمراض لمن التجأ إلى الله بلا اعتراض.

موقف عبد الكريم الفكون من التصوف :

قام العلامة عبد الكريم الفكون بنقد متصوفة عصره ، و نسب إليهم الخرافة و الشعوذة، كما دعاهم إلى التمسك بالعلم ، و نبذ البدعة و العمل بالكتاب و السنة ، و تجلّى ذلك في مؤلفه " منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم و الولاية " ، و الذي قال في مقدمته بوضوح: "أما بعد: فلما رأيت الزمان بأهله تعثر و سفائن النجاة من أمواج البدع تتكسر، و سحائب الجهل قد أضلت و أسواق العلم قد كسدت ، فصار الجاهل رئيسا و العالم في منزله من يدعى من أجلها حسيسا، و صاحب الطريقة قد أصبح و أعلام الزندقة على رأسه

ادعاه الغربي و لكن معرفتنا لبعض آثار الفكون الأخرى تجعلنا نعتقد أن هذا العمل غني بالآراء و النقول و أن صاحبه قد عالج فيه أنواع القراءات و رواها و غير ذلك مما يتصل بهذا الموضوع و مما يتصل بأوجه القراءات طريقة النطق بالتكبير و الصلاة على النبي (صلى الله عليه وسلم) عند الختم". المهدي بوعبدلي: "عبد الكريم الفكون والتعريف بتأليفه: "منشور الهداية" مجلة الأصاله العدد: 51، ص.15

³⁰ - أبو القاسم سعد الله: منشور الهداية، مرجع سابق، ص 46.

³¹ - وهو شرح للأرجوزة المشهورة من 403 لصاحبها النحوي الكبير عبد الرحمان المكودي الفاسي (ت 807 هـ).

³² - هو جزائري ، وشرحه يسمى "الدرة النحوية في شرح الأجرومية" وهو أول شرح لمتن "الأجرومية"

لائحة، و روائح السلب و الطرد من المولى عليه فائحة، إلا أنهم و أعني الطائفتين تمسكوا من دنياهم بمناصب شرعية و حالات كانت قدما للسادة الصوفية ، فموهوا على العامة بأسماء ذهب تسمياتها و أوصاف تلاشت في أهلها منذ زمان...، كل ذلك و القلب مني يتقطع غيرة على حزب الله العلماء، أن ينسب جماعة الجهلة المعاندين الضالين المضلين لهم، أو يذكروا في معرضهم، و غيرة على جناب السادة الأولياء الصوفية أن تكون أراذل العامة و أنذال الحمقى المغرورين أن يتسموا بأسمائهم أو يظن بهم اللحوق بآثارهم".³³

و لم يتوقف الفكور عند هذا الحد من المهاجمة بل تعداه إلى أن اعتبر محاربتهم جهاد ، و هو أحد من السيف في نحور أعداء الله، كل ذلك لحرصه الشديد على حماية الدين من الأباطيل و الضلالات و البدع و الخرافات التي عكف يدعون الولاية بثها في مجتمع قسنطينة و استغلال ذوي القلوب الضعيفة و استدراجهم باسم الولاية لصفهم، حتى ينالوا بذلك الخطوة و المكانة الاجتماعية.³⁴

كما أن الفكور لم يكتف بمحاربتهم عن طريق تأليفه لكتاب يفضح طريقتهم، و إنما اعتمد على تصحيح ما بثوه من أباطيل، معتمدا في ذلك على التعليم الذي هو روح الأمة في أي مجتمع، و عن طريقه ينتشر الفكر السليم الذي تتشبع به الأجيال و يتوارثونه جيلا بعد جيل، فعكف الفكور على التدريس في كل مكان يراه مناسبا.³⁵

و من خلال كتابه " منشور الهداية" نجد لأنه من بين النقاط التي أخذ علماء بلاده فيها انحراف المرابطين بادعائهم التصوف و الولاية و اتخاذهم الحضرة و الوعدة و أكلهم الحشيش و الاجتماع على الرقص الصوفي بهدف الحصول على المال و استغلال العامة و التحالف مع السلطة... ؛ فقد كثر أدعياء الولاية والدجالون و المشعوذون، و هنا يفرق الفكور بين المتصوف الحقيقي و المتصوف الدجال الذي ينتقده، فقد قام بثورة صارخة ضد البدع و الخرافات ، و دعا إلى التصوف السلفي القائم على العلم و العمل معا، و ضرورة استخدام العقل و العمل بالاجتهاد.³⁶

³³ - أبو القاسم سعد الله: منشور الهداية، مرجع سابق، ص 31-32.

³⁴ - أبو القاسم سعد الله: منشور الهداية، مرجع سابق، ص 33.

³⁵ - أبو القاسم سعد الله: شيخ الإسلام، ص 89

³⁶ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، مرجع سابق، ص 523

و عن هؤلاء قال الأخضري في منظومته التي ألفها في الرد على المبتدعة:

و الرقص و الصراخ و التصفيق عمدا لذكر الله لا يليق

و إنما المطلوب في الأذكار الذكر و الخشوع و الوقار

قام الشيخ عبد الكريم الفكون بالتفريق بين نوعين من المتصوفة؛ المتصوف الحقيقي و المتصوف الدجال؛ إذ يقول: " و الميزان الأعدل في ذلك أن تنظر إلى المرء و ما هو عليه من الطريق القويم و الصراط المستقيم في اتباع السنة قولاً و فعلاً و عملاً فما كان فهو ممن يجب الاعتقاد فيه و ما لا فلا " ³⁷.

فهو يرى بأن التصوف الحقيقي هو الذي تتوفر فيه شروط أساسية منها معرفة الكتاب و السنة معرفة دقيقة و العلم بهما و الجمع بين العلم و العمل و السعي إلى معرفة الله حق المعرفة عن طريق التأمل و النظر و التفكير في مخلوقاته ، بالإضافة إلى التقى و الورع و التجرد عن هوى النفس و حب الدنيا و الابتعاد عن مغريات السياسة و السلطة. كما عرف المتصوف الدجال بتعريف فيه ثورة صارخة ضد البدع و الخرافات.

كما نجد دعوة واضحة إلى التصوف السلفي القائم على العلم و العمل معاً، وكذا نداء إلى ضرورة استخدام العقل و العمل بالاجتهاد مثلما يظهر في أماكن عدة من كتابه " منشور الهداية " ³⁸.

فالشيخ الفكون كان هو نفسه متصوفاً و لكنه من متصوفة السلف، إلا أنه لم يسلم من الخرافة و سيطرة العقائد المعاصرة ، ذلك أنه طالما ذكر أشياء تبدو غير عقلية ، و هي لا تنسجم مع ما كان يدعو إليه من تحكيم العقل و اتباع الكتاب و السنة و نبذ البدع، فقد ذكر عدداً من المرائي المنامية و تحدث عن كرامات رجال التصوف و أظهر التصديق لها و الإيمان بها، في حين أنكّر ما كان " يدعيه " الآخرون من كرامات و خيالات، و يعتبر ذلك خبالاً في العقل و تصورات و روحانيات ... و قال إن كرامات الأولياء مما يجب الإيمان بها ؛ و بالتالي فالفكون لم يتخلص من روح العصر رغم عقلانيته في نقده لأحوال الناس و دعوته الصريحة لنبذ البدع و التمسك بالكتاب و السنة . ³⁹

فقد رأينا فرقة قد ذكروا تبعدوا و ربما قد كفروا

³⁷ - أبو القاسم سعد الله: منشور الهداية، ص 118

³⁸ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1 ، ص 524

³⁹ - أبو القاسم سعد الله : شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت -

لبنان، 1986م، ص 140-141.

فقد هاجم الفكون البدع و اعتبرها من سيئات عصره، و اعتبر المبتدعة ضالين مضلين ، و أعجب بالعلماء العاملين والمتصوفة الذين اتبعوا السنة و ابتعدوا عن البدعة؛ هاته الأخيرة التي يعتبرها وسيلة التجأ إليها بعض أدعياء التصوف للوصول إلى المال و سلب العامة و التلصص و التدجيل باسم الدين و التصوف.⁴⁰

يقول عن الحضرة: "إنها لعبة يتخذونها ، يراؤون الناس بها ، و لا يستخفون من الله، بها يألون و منها يتمولون، و عليها في قضاء أوطارهم يعولون، يجتمعون لذكر المولى جل جلاله، فيغيرون اسمه، و يشطحون و يرقصون، و ربما يتضاربون، فتراهم ككلاب ناجحة، و لعابهم كمياه طافحة، و أنفاسهم كنيران نافحة، لا يفرقون بين واجب و مندوب، و لا محرم و مكروه، و يعتقدون أن ما هم عليه هو الحق الواضح، و الطريق الأقوم الراجح، و لقد زين لهم الشيطان أعمالهم و حبب إليهم أفعالهم، و استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون"⁴¹

و لا يعني هنا أن الشيخ الفكون ينكر التصوف، إلا أنه يرى أن أهل عصره انحدروا به إلى الدرك الأسفل و أسأؤوا فهمه، و حولوه إلى " حضرة" فيها الرقص و الموسيقى و الإنشاد و غيرهما من البدع و المنكرات، كما استغلوه في سلب العامة أموالها و تخدير عقولها و تعطيل الأعمال التي أمر الله بها، و من ثمة الوهن الذي أصاب المسلمين. و لذلك كان يكثر الاستشهاد من آثار المتصوفة الأقدمين كالبسطامي و الطرطوشي و إبراهيم الشاطبي و الغزالي و محمد بن الحاج و إبراهيم بن الأدهم، بالإضافة إلى الأخضريري و زروق و الوزان.

فتورة الفكون إذن ليست على التصوف في حد ذاته و لكن على سوء فهمه و استغلاله، و ليست على المتصوفة عموما و لكن على الدجالين المشعوذين أو " أدعياء الولاية " كما يسميهم ، أولئك الذين اتخذوا تلاميذ من النساء و الرجال، و نصبوا أنفسهم لإعطاء العهد و تلقين الأوراد ، و كانوا يخالطون الظلمة و المفسدين ، و يدخلون على النساء في بيوتهن ، و استشهاد لذلك بالشيخ بوكلب الذي تعلق بامرأة و تعلقت به حتى أنها كانت تبيت عنده و حملت منه فقالت إن الأولياء أعطوها له ، كما استشهاد بالشيخ بلقاسم الحيدوسي الذي كان يجتمع بالنساء غيسة و حضورا.⁴²

⁴⁰ - المرجع نفسه، ص 133.

⁴¹ - أبو القاسم سعد الله : منشور الهداية. مرجع سابق. ص

⁴² - أبو القاسم سعد الله : شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية. مرجع سابق. ص 113-114

و موقف الشيخ الفكون من أهل التصوف هو نفس موقف علماء أهل السنة من المتصوفة المنحرفة، فنجد مثلاً الإمام الشافعي رحمه الله يقول: وأكره أن يبنى على القبر مسجد، وأن يسوى أو يصلى عليه وهو غير مسوى أو يصلى إليه⁴³.

وقال الإمام النووي رحمه الله: واتفقت نصوص الشافعي والأصحاب على كراهة بناء مسجد على القبر سواء كان الميت مشهوراً بالصلاح أو غيره لعموم الأحاديث. قال الشافعي والأصحاب: وتكره الصلاة إلى القبور سواء كان الميت صالحاً أو غيره⁴⁴.

وقال الإمام ابن قدامة رحمه الله: (فصل: ويكره البناء على القبر، وتخصيصه، والكتابة عليه لما روى مسلم في " صحيحه " قال: " نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخصص القبر، وأن يبنى عليه، وأن يقعد عليه ". زاد الترمذي وأن يكتب عليه. وقال: هذا حديث حسن صحيح. ولأن ذلك من زينة الدنيا، فلا حاجة بالميت إليه.

وفي هذا الحديث دليل على الرخصة في طين القبر، لتخصيصه التخصيص بالنهي ونهى عمر بن عبد العزيز أن يبنى على القبر بأجر، وأوصى بذلك. وأوصى الأسود بن يزيد أن لا تجعلوا على قبوري آجرا وقال إبراهيم كانوا يكرهون الآجر في قبورهم.

الخاتمة:

و في الأخير نخلص في هذا المقال إلى بعض النتائج، وهي كالآتي:

⁴³ - محمد ابن إدريس الشافعي، الأم، 1، ص 317

⁴⁴ - النووي، المجموع شرح المهذب، تحقيق رائد بن أبي علفة، ج 5، ص 316

أن التصوف عرف بعض الزيغ عن منهج الشريعة الإسلامية من طرف بعض أتباعه خصوصا الجاهلين بالعلوم الشرعية، الذين لم يطلبوا العلم الشرعي من العلماء المعروفين في زمانهم و المشهود لهم بالعلم و الورع و التقوى.

أن الجزائر قد عرفت ظهور عدة حركات صوفية أو طرق خلال القرن الثامن هجري، كباقي دول المغرب العربي. أن هذا البلد لم يخلو من علماء فطاحلة دافعوا عن الشرع الحنيف ضد المنحرفين من المتصوفة الذين لا يعرفون من التصوف إلا اسمه.

أن العلامة عبد الكريم الفكون كان من كبار علماء هذا البلد في عصره، و قد قام بجهود جبارة في محاربة المبتدعة من متصوفة عصره.